ترجمات | Translations

هل كان ابن تيمية به مسٌّ من جنون؟

Did Ibn Taymiyya Have a Screw Loose?

تأليف: دونالد ب. لتل | Donald P. Little[١]
ترجمة: أحمد محمود إبراهيم | Ahmed Mahmoud Ibrahim[٢]

(١) دونالد ب. لتل (Donald P. Little) (١٩٣٢-٢٠١٧م): مستشرقٌ أمريكيٌّ معاصر، ارتبط اسمُهُ بمعهد الدراسات الإسلامية بجامعة ماكجيل (McGill University) (كندا)، مشتغلاً بتدريس التاريخ الإسلامي واللغة العربية.
من أشهر أعماله: (An Introduction to Mamluk Historiography).

(٢) د. أحمد محمود إبراهيم: مدرس التاريخ الإسلامي والحضارة بكلية دار العلوم جامعة القاهرة.
من أعماله المنشورة: "تأسيس الإسلام الموازي: التصوف الشعبي في الأناضول"، ومن ترجماته عن الإنجليزية: "النشأة الثانية للفقه الإسلامي: المذهب الحنفي في فجر الدولة العثمانية الحديثة، لجاي بوراك".
الإيميل: ahmed1977historian@gmail.com

تتخذ هذه الدراسةُ المعقودةُ لتحليل شخصية ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ/١٣٢٨م) من الحُكْم الذي قرره ابنُ بطوطة (٧٧٩هـ/١٣٧٧م تقريبًا) بشأنه، وهو أنه كان يفتقر إلى الاتزان العقلي= مُنْطَلقًا لها. ولئن كانت تتغيَّا في الأساس تقييمَ هذا الحُكْم، فإن لها هدفًا آخر يتمثَّل في بيان ما إذا كانت شخصيةُ ابن تيمية قد أثَّرت على سيرته، وكيف أثَّرت، وعلى وجه الخصوص تحديد ما إذا كان التحيُّزُ العاطفيُّ الذي أثاره سواءٌ أكان لصالحه أم ضده يمكن أن يُعْزَى بدرجةً كبيرةً إلى سلوكه. على أننا سنضرب صفحًا هنا عن مناقشة مسألةً أخرى لا تقل في أهميتها عن سابقتها إن لم تكن أهمَّ منها، ألا وهي مقدارُ الأثر الذي تركته شخصيةُ ابن تيمية على كتاباتَهَ؛ لأن الترتيب الزمني لمؤلفاته التي تَنَدُّ عن الحصر، والتي لا يزال أكثرُها مخطوطًا، لم يُدْرَس بعدُ درسًا وافيًا. وثمة سؤالٌ آخر يرد ضمنًا في تضاعيف هذه الدراسة، وهو: هل المعلومات التي تتيحها لنا المصادرُ الإسلاميةُ الوسيطةُ تكفي للوفاء بمقاصد التحليل النفسي الجاد [لشخصية ابن تيمية]؟

ومما يَدُلُّنا على أن العبارة التي أطلقها ابنُ بطوطة يَصِفُ بها السلامةَ العقليةَ لابن تيمية ليست أمرًا هيِّنًا يمكن إغفالُهُ تلك المقالةُ التي نشرها بأخرة البروفيسور جورج مقدسي (George Makdisi)، وذهب فيها إلى أن هذه العبارة نفسها كانت من الأسباب الأساسية وراء الرأي العلمي السائد والقائل بأن ابن تيمية والمدرسة الحنبلية كانا «**يقعان خارج التيار الأساسي للفكر الإسلامي**»، وأن هذه الصورة التي رُسِمَتْ للشيخ، فطَفِقَ المستشرقون يرددونها في غير رَوِيَّةٍ أو تمحيص، «أفضت إلى تشويش نظرتنا إلى التاريخ الديني الإسلامي»[٣].

(3) “Ibn Taymiya: A Ṣūfī of the Qādiriya Order”, American Journal of Arabic Studies, I (1973), 119.

والحق أن مقدسي لم يحفل بمسألة ما إذا كان رأيُ ابن بطوطة له ما يسوِّغُهُ أم لا، إلا على نحو غير مباشر، وذلك حين أشار إليه بوصفه «واحدًا من منتقدي ابن تيمية في العصور الوسطى»[٤].

غير أنه إذا كان ينبغي الفصلُ في هذه التهمة؛ ابتغاء إقامة فهمنا لابن تيمية على أساس تاريخي متين، فمن الضروري فيما يبدو أن نستعرض الأدلة المتاحة التي تُثْبِتُ هذه التهمةَ أو تنفيها. ولكن ما أيسرَ الدعوةَ إلى ذلك، وما أشقَّ الوفاءَ بها؛ ذلك أننا حتى لو غضضنا الطَّرْفَ مؤقتًا عن المعلومات الأساسية التي تتيحها لنا كتاباتُ ابن تيمية، فسوف نصادف قدرًا هائلاً من الأخبار التي أوردتها عنه الحولياتُ، والمصنَّفاتُ التي أُفردت للحديث عنه، وكتبُ التراجم، على نحو يفوق في الغالب ما ورد من أخبار عن أي مسلم آخر ينتمي إلى العصور الوسطى، جملة وتفصيلاً، ما خلا محمدًا [ﷺ] نفسه بطبيعة الحال[٥].

وبالإضافة إلى الصعوبة التي يثيرها حجمُ المصادر، ثمة مسألةٌ أخرى تتعلَّق أيضًا بطبيعة هذه المصادر؛ ذلك أنه على الرغم من أن كثيرًا من المؤلِّفين هاجموا معتقدات ابن تيمية، فإننا لا نكاد نقف على أحد انتقد شخصَهُ. ويرجع السببُ في ذلك جزئيًّا إلى ما تصادف من أن مَنْ ترجموا له كانوا جميعًا من أنصاره في الغالب، سواء بوصفهم حنابلةً؛ كابن عبد الهادي (ت ٧٤٤هـ/١٣٤٣-١٣٤٤م)، وابن رجب (ت ٧٩٥هـ/١٣٩٢م/ ١٣٩٢- ١٣٩٣م)، أم بوصفهم من المنتمين إلى مَنْ اصطَلح البروفيسور هنري لاووست (Henri Laoust) على تسميتهم بـ«**الحنابلة الشوافع**» أو «**الشافعية المؤيِّدين للمذهب الحنبلي**»؛ كالذهبي (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٩م)، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م)[٦]، على الرغم من أن الذهبي، كما سنرى، يمثِّل حالةً خاصة. ولذلك فإن أكثر ما كُتب عن ابن تيمية يندرج ضمن السِّيَر التقديسية التي تحتفي بالمناقب، على نحو ما يُشير إليه عنوانُ أكمل المصادر المعاصرة التي ترجمت لابن تيمية، وهو كتاب «**العُقُود الدُّرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية**» لابن عبد الهادي[٧]. بيد أنه يسعنا الوقوفُ في هذا الحَشْد من الأخبار، التي مال بها الهوى، على بعض الأدلة التي يمكن من خلالها تمحيصُ الحُكْم الذي أطلقه ابنُ بطوطة، وإنْ لزمنا أولاً تمحيصُ شهادته تمحيصًا دقيقًا، ثم مقارنتُها بعد ذلك بغيرها من الأحكام التي أُطْلِقَتْ على

(4) Ibid., p. 118.

ويُنْكِرُ هنري لاووست (Henri Laoust) أيضًا، في دراسته (Essai sur les doctrines sociales et politiques de Taḳī-d-Dīn Aḥmad b. Taimīya, Cairo, Institut Français d'Archéologie Orientale, 1939, p. 481)، رأيَ ابن بطوطة؛ لأنه **"صدر عن مراقب ذي هوى، ورحالة يملؤه الزهو، ومتكلّم مشوش المعرفة، و[فقيه] مالكي متعصب"**. وراجع أيضًا أيضًا: (pp. ٤٨٠-٨٣) من دراسة لاووست المذكورة.

(٥) راجع للمؤلِّف نفسه:
"The Historical and Historiographical Significance of the Detention of Ibn Taymiyya", International Journal of Middle East Studies, IV (1973), 313-20.
[وقد ترجمتُ هذه الدراسةَ إلى العربية بعنوان: **"اعتقال ابن تيمية ودلالته في التاريخ والتأريخ"**، وهي منشورةٌ على موقع نهوض بتاريخ ٢٠١٩م. **(المترجم)]**.

(6) "Le Hanbalism sous les mamlouks bahrides", Revue des Études Islamiques, XXVIII (1960), 58.

(٧) تحقيق: محمد حامد الفقي، القاهرة: مطبعة حجازي، ١٩٣٨م.

شخصية ابن تيمية، كي نخلصُ من ذلك إلى بعض النتائج التي نستقلُّ بها.

وأما الفقرةُ ذاتُ الصلةِ بموضوعنا فترد في **«رحلة ابن بطوطة»** حين شرع في وصف زيارته لدمشق سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م؛ فقد افتتح وصفَهُ للمدينة، جريًا على مألوف عادته، بذكر انطباعات ابن جُبَيْرٍ (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) عنها، وهو الرحالةُ الذي سبقه زمنيًّا، ثم انتقل إلى وصف الأثر الإسلامي الرئيس في دمشق، وهو الجامع الأموي، معوِّلاً في ذلك أيضًا على ابن جبير بدرجةٍ كبيرةٍ، ثم أخذ في ذكر المدرِّسين والمعلِّمين به، وقضاة القضاة الأربعة في المدينة، ثم شفع ذلك بفَصْلٍ عَنْوَنَهُ بـ**«حكاية»** تكلَّم فيه عن ابن تيمية. وقد ترجمتُ هذه الحكاية بتمامها؛ لاعتقادي أن استعراض حكْم ابن بطوطة في سياقه الكامل الذي أورده فيه هو أمرٌ من الأهمية بمكان:

«وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقيُّ الدين ابن تيمية كبيرُ الشام، يتكلَّم في الفنون، إلا أنَّ في عقله شيئًا. وكان أهلُ دمشق يعظّمونه أشدَّ التعظيم، ويَعِظُهم على المنبر. وتكلَّم مرةً بأمر أنكره الفقهاءُ ورفعوه إلى الملك الناصر، فأمر بإشخاصه إلى القاهرة، وجمع القضاة والفقهاء بمجلس الملك الناصر، وتكلَّم شرفُ الدين الزواوي المالكي وقال: إن هذا الرجل قال كذا وكذا، وعدَّد ما أُنْكِر على ابن تيمية، وأحضر العقود بذلك ووضعها بين يدي قاضي القضاة، وقال قاضي القضاة لابن تيمية: ما تقول؟ قال: لا إله إلا الله، فأعاد عليه، فأجاب عليه بمثل قوله. فأمر الملكُ الناصر بسجنه، فسُجِنَ أعوامًا، وصنَّف في السجن كتابًا في تفسير القرآن سمَّاه «البحر المحيط»، في نحو أربعين مجلدًا. ثم إن أمَّه تعرَّضت للملك الناصر، وشَكَت إليه، فأمر بإطلاقه، إلى أن وقع منه مثلُ ذلك ثانيةً، وكنتُ إذ ذاك بدمشق، فحضرتُهُ يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويُذَكِّرهم؛ فكان من جُمْلة كلامه أن قال: إن الله ينزل إلى السماء الدنيا كنزولي هذا، ونزل درجةً من دَرَج المنبر، فعارضه فقيهٌ مالكيٌّ يُعْرَف بابن الزهراء، وأنكر ما تكلَّم به، فقامت العامةُ إلى هذا الفقيه وضربوه بالأيدي والنِّعال ضربًا كثيرًا، حتى سقطت عمامتُهُ، وظهر على رأسه شَاشِيَّةٌ حرير، فأنكروا عليه لباسَهَا، واحتملوه إلى دار عز الدين بن مسلم قاضي الحنابلة، فأمر بسجنه وعزَّره بعد ذلك. فأنكر فقهاءُ المالكية والشافعية ما كان من تعزيره، ورفعوا الأمر إلى ملك الأمراء سيف الدين تنكيز، وكان من خيار الأمراء وصُلحائهم، فكتب إلى الملك الناصر بذلك، وكتب عقدًا شرعيًّا على ابن تيمية بأمور منكرة، منها أن المُطَلّق بالثلاث في كلمة واحدة لا تلزمه إلا طلقةٌ واحدةٌ، ومنها المسافرُ

الذي ينوي بسفره زيارة القبر الشريف، زاده اللهُ طيبًا، لا يَقْصُر الصلاة، وسوى ذلك ما يشبهه. وبعث العقد إلى الملك الناصر، فأمر بسجن ابن تيمية بالقلعة، فسُجِنَ بها حتى مات في السجن»[٨].

وتتمثَّل القضيةُ الأساسيةُ التي تثيرُها هذه الحكايةُ فيما إذا كان ابنُ بطوطة قد رأى ابن تيمية وراقبه حقًّا، أم أنه عوَّل فيما أورده على مرويات بعض شهود العيان، وعلى خياله في أكبر الظن؟ والحقُّ أن التسلسل الزمني الذي يورده ابنُ بطوطة يدحض الوقائعَ التي يذكرها، على نحو ما جرت به عادتُهُ في كثير من الأحيان: ذلك أنه إذا لم يكن قد وصل إلى دمشق- تَبَعًا لروايته هو- حتى التاسع من رمضان سنة ٧٢٦هـ (التاسع من أغسطس سنة ١٣٢٦م)، فقد استحال أن يرى ابنَ تيمية وهو يعظُ في الجامع الأموي؛ لأن الأخير كان مسجونًا آنذاك، ولبث في السجن شهرًا، استنادًا إلى بعض المصادر المستقلة[٩].

وفضلاً عما تقدَّم، يبدو من المستغرب أن تخلو المصادرُ الأخرى مما عسى أن يوثِّق إشارة ابن بطوطة إلى مثل هذه الحادثة، وهي المصادرُ التي تؤكِّد، خلافًا لما قرره ابنُ بطوطة، أن السبب في سجن ابن تيمية في هذه المناسبة كان موقفَهُ من مسألة زيارة القبور[١٠]، التي لا تعدو أن تكون في رواية ابن بطوطة مسألةً ثانويةً. وتَبَعًا لهذه المصادر نفسها، كانت آراءُ ابن تيمية في مسألة صفات الله، ومنها صفةُ النزول، هي السبب فيما تعرَّض له من مشكلاتٍ في طور أسبق من حياته[١١].

(8) Voyages, I, 215-18; cf. the translations of Gibb, Ibn Battuta, Travels in Asia and Africa, 1325-1354, London (Routledge & Kegan Paul Ltd) 1929, pp. 67-68, and The Travels of Ibn Baṭṭūṭa, A. D. 1325-1354, I, Cambridge (The University Press) 1958, 135-36.

(9) J Gibb, The Travels of Ibn Baṭṭūṭa, I, 135, note 251.
ويذكر ابنُ عبد الهادي في **"العقود الدرية"**، ص ٣٢٥، تاريخًا [آخر] هو السادس من شعبان (الثامن من يوليو)، ويذكر ابن كثير في **"البداية والنهاية"**، (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٣٩م، ١٢٣/١٤) تاريخًا [ثالثًا] هو السادس عشر من شعبان (الثامن عشر من يوليو). وانظر أيضًا: Ivan Hrbek, "The Chronology of Ibn Baṭṭūṭa's Travels", Archiv Orientálni, XXX (١٩٦٢), ٤٢٥)؛ حيث أكَّد أن ابن بطوطة لا يمكن أن يكون قد رأى ابن تيمية في دمشق، وأنه ربما سمع **"الحكاية"** التي سردها في رحلته من بعض المصادر في مكة. ويخلص إيفان هربك (Ivan Hrbek) من ذلك إلى أن ابن بطوطة **"يروي ما يسمعه من أحداث كأنه رآها رأي العين، وهو ما يترتب عليه أنه لا يمكن الوثوقُ بما يذكره في مناسبات مماثلة"**.

(١٠) انظر على سبيل المثال: ابن عبد الهادي، **العقود الدرية**، ص ٣٢٧- ٣٦٠؛ ابن كثير، **البداية والنهاية** ١٢٣/١٤- ١٢٤؛ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، **أعيان العصر وأعوان النصر**، عاطف أفندي مخطوط ١٨٠٩م، ورقة ٣٤ أ؛ ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٩٦٦م، ١٥٩/١؛ وانظر أيضًا: Laoust, Essai, pp. 145-47; Ḥasan Q. Murād, "Miḥan of Ibn Taymiya: A Narrative Account Based on a Comparative Analysis of Sources", unpublished M. A. thesis, McGill University, 1968, pp. 107-109.

(١١) ابن عبد الهادي، **العقود الدرية**، ص ١٩٨- ٢٣٢؛ ابن كثير، **البداية والنهاية** ٣٨/١٤، الصفدي، **أعيان العصر**، ورقة ٣٤ أ؛ وانظر أيضًا:
Laoust, Essai, pp. 132-33; Murād, "Miḥan", pp. 77-78, 84-92.

والواقع أن ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م) يروي أن الحادثة التي نزل فيها ابنُ تيمية درجةً من درجات المنبر لكي يوضِّح فهمَهُ للنزول وقعت مبكرًا، في سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٥م[١٢]. ولما كان المصدرُ الذي اعتمد عليه ابنُ حجر في هذه الحادثة شخصًا معاصرًا لابن تيمية، فأكبرُ الظنِّ أن ابن بطوطة نقل عنه هذه الرواية، وزعم أنه شهد الحادثة المذكورة بنفسه؛ كي يزيد التأثير الدرامي للحكاية التي أوردها.

وثمة فروقٌ أخرى كذلك؛ منها على سبيل المثال: أنه ليس ثمة مصدرٌ آخرُ يزعم أن أم ابن تيمية توسَّطت لدى السلطان لإطلاق سراح ابنها من السجن، على الرغم من أن ابن عبد الهادي يورد خطابًا كتبه ابنُ تيمية إلى أمه وهو مسجونٌ في مصر[١٣]. ومع ذلك، فإن كثيرًا من التفاصيل التي ذكرها ابنُ بطوطة صحيحةٌ؛ فقد كان محمد عز الدين بن مسلَّم قاضي قضاة الحنابلة في دمشق آنذاك[١٤]، ومن المعلوم أن الأمير تنكز كان يشغل في ذلك الحين منصب نائب دمشق[١٥]. وأهمُّ من ذلك أن ما ذكره ابنُ بطوطة من إدانة ذلك الفقيه المالكي للبسه الحرير يُعزِّز موثوقيةَ روايته. صفوةُ القول أن هذه الحادثةَ المتعلِّقة بالنزول درجةً عن المنبر يُحتَمَلُ أنها وقعت أثناء المدة نفسها التي تعرَّض فيها ابنُ تيمية للهجوم بسبب آرائه في زيارة القبور، وهو الهجوم الذي شهده ابنُ بطوطة، ولكنه أخطأ في تحديد تاريخ زيارته لدمشق فأخَّره شهرًا، وذلك حين أملى مذكراته بعد ذلك بسنوات.

ومهما يكن من أمر، فحتى لو لم يكن ابنُ بطوطة قد رأى ابنَ تيمية رأي العين، فإن المعلومات التفصيلية التي ضمَّنها تلك الحكاية تَدُلُّنا في وضوح على أنه سمع أو طالع مروياتٍ تعرض لأنشطة ابن تيمية، فاقتنع بأنه على الرغم مما كان عليه الشيخُ من غزارة العلم، وما حَظِيَ به من المكانة والشعبية في دمشق، فقد بدا غريبَ الأطوارِ إلى حدٍّ ما فيما كان يؤمن به من معتقداتٍ وما يصدر عنه من ألوان السلوك. والحق أن الانطباع الذي تركته حكايةُ ابن بطوطة بوجه عام هو أن رجلاً في كامل قواه العقلية ما كان له أن يُباهي في ملأٍ من الناس وعلى هذا النحو السافر بآرائه في التجسيم، وما كان له أن يرفض التعاون مع السلطات إذا اعتُقِلَ أو خضع للتحقيق. ومن المؤكَّد أنه ما كان ليكرر ذنبًا لبث بسببه في السجن مدةً من الزمان. ولكن من الواضح أن هذه المسألة تتعلَّق برأي ابن بطوطة الشخصي، وأن المادة نفسها ربما تُفَسَّر لإثبات أن ابن تيمية كان بطلاً، يتحدَّى الدولة

(١٢) **الدرر الكامنة**، ١/١٦٤. وكان المصدرُ الذي استقى منه ابنُ حجر هذه الحادثةَ هو نجم الدين سليمان الطوفي الحنبلي (ت ٧١٦هـ/١٣١٦م)، الذي يذكر لاووست أنه أحد تلاميذ ابن تيمية (Essai, p. ٤٨٨, note ١). وتأسيسًا على هذه الإشارة التي يخبر فيها أحدُ تلاميذ ابن تيمية أن الشيخ نزل درجة من المنبر، يبدو من الصعب قبولُ الحُكْم الذي أطلقه لاووست مقرِّرًا فيه أن رواية ابن بطوطة لحادثة مماثلة كانت "افتراءً مثيرًا للدهشة" (ibid., p. ٤٨١).
[قال ابنُ حجر فيما رواه عن الطوفي: "... فذكروا أنه ذكر حديث النزول، فنزل عن المنبر درجتين، فقال: كنزولي هذا؛ فنُسِب إلى التجسيم". **(المترجم)**].

(١٣) **العقود الدرية**، ص ٢٥٨- ٢٥٩.

(١٤) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ١٤/١٢٦.

(15) L. A. Mayer, Saracenic Heraldry, Oxford (Clarendon Press), 1933, p. 219.

في المنافحة عن آرائه الخاصة؛ ولهذا، فإنه لما كانت روايةُ ابن بطوطة مشكوكًا فيها، ولما كان رأيُهُ موضعَ خلافٍ، فإنه ينبغي علينا أن نلتمس تقييم شخصية ابن تيمية في بعض المصادر الأخرى.

والواقع أن المادة المناقبية التي قُصِدَ بها إلى تبجيل أقوال ابن تيمية وأفعاله تتسم بالوفرة والثراء؛ فمن ذلك مثلاً: أن ابن عبد الهادي يختتم «**عقوده**» بما دبَّجه طائفةٌ من معاصري الشيخ، لا يقل عددُهم عن ثمانية وعشرين رجلاً، في مديحه ورثائه[١٦]، وجمع ابنُ ناصر الدين (ت ٨٤٢هـ/١٤٣٨-١٤٣٩م) أقوال خمسة وثمانين عالمًا يُقِرُّون فيها بأن ابن تيمية كان جديرًا بهذا اللقب الجليل «**شيخ الإسلام**»[١٧]. على أن ما ظفر به ابنُ تيمية من ثناء عريض لا يعني بالضرورة أنه لم يكن حقيقًا به، بل إنه من الواضح، خلافًا لذلك، أن المبالغة في مدحه كانت تدل على أنه شخصٌ استثنائيٌّ؛ ولهذا فقد أثار مثل هذا التقدير العام [في المجتمع المملوكي]. وخيرُ دليلٍ على ذلك اعترافُ خصومه [قبل أتباعه] بأن حياتَهُ كانت نموذجًا يُحْتَذَى به؛ فمن ذلك مثلاً: أن ابن مخلوف (ت ٧١٨هـ/١٣١٨م)، قاضي المالكية في مصر الذي كان مسئولاً إلى حدٍّ كبير عن المحاكمات والمِحَن الأولى التي تعرَّض لها ابنُ تيمية في مصر[١٨]، اعترف في نهاية المطاف قائلاً: «**ما رأينا أتقى من ابن تيمية، لم نُبْقِ ممكنًا في السعي فيه، ولمَّا قَدَرَ علينا عَفَا عنا**»[١٩].

بل إن تقي الدين السُّبكي (ت ٧٥٦هـ/١٣٥٥م)، الذي صنَّف بعض الرسائل في معارضة آراء ابن تيمية في العقائد[٢٠]، ووصفه لاووست بأنه عدوُّ ابن تيمية [اللدود][٢١]، أبدى رضاه عما ذكره الذهبيُّ في تقييم ابن تيمية:

«**[قال ابنُ حجر: وكتب الذهبيُّ إلى السبكي يعاتبه بسبب كلامٍ وقع منه في حق ابن تيمية؛ فأجابه، ومن جملة الجواب]: وأما قولُ سيدي في الشيخ تقي الدين، فالمملوك يتحقَّق كبيرَ قدره، وزخارةَ بحره، وتوسُّعَه في العلوم النقلية والعقلية، وفرطَ ذكائه واجتهاده، وبلوغَهُ في كل من ذلك المبلغَ الذي يتجاوز الوصفَ، والمملوك يقول ذلك دائمًا، وقدرُهُ في نفسي أكبرُ من ذلك، وأجلُّ ما جمعه اللّٰهُ له من الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيام فيه، لا لغرض سواه، وجريه على سنن السلف، وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى، وغرابة مثله في هذا الزمان، بل من أزمان**»[٢٢].

وعلى الرغم من أن السبكي قد يُتَّهم بالوقوع في شيءٍ من المبالغة والإطناب

(16) pp. 393-517.

(١٧) **الرد الوافر على مَنْ زعم أن مَنْ سمَّى ابنَ تيمية شيخ الإسلام كافر**، في المجموع المشتمل على الدرر الآتية، تحقيق: فرج الله الكردي، القاهرة: مطبعة كردستان العلمية، ١٣٢٩هـ/١٩١١م، ص ١-٩٩.

(١٨) انظر الإحالات الوادة في:
Little, "Detention", p. 324, note 7.

(١٩) ابن عبد الهادي، **العقود الدرية**، ص ٢٨٣.

(٢٠) **الدرة المضية في الرد على ابن تيمية**، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، دمشق، (القدسي)، ١٣٤٧هـ/١٩٢٨-١٩٢٩م.

(٢١) "Hanbalisme", p. 57.

(٢٢) ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ١/١٥٩.

في هذا المقام، فمن الصعب الاعتراضُ على الوصف الذي أسبغه على ابن تيمية؛ لتكراره المطرد على ألسنة أصدقاء الشيخ وخصومه جميعًا.

بيد أن الإقرار لابن تيمية بجملةٍ من الفضائل لا يعني تبرئتَهُ من كل نقيصة؛ فبين عبارات المدح والثناء يمكن العثورُ على مثلبةٍ وحيدةٍ أُنْكِرت على الشيخ. وتشتمل الرسالةُ المعنونةُ بـ«**النصيحة الذهبية لابن تيمية**» على أصرح نقدٍ وُجِّه إلى شخصه[٢٣]، ومن الجلي أنها من تصنيف المؤرِّخ والمحدِّث الشهير الذهبي، على الرغم من أن نسبتها إليه، كما سنرى، لم تزل موضعَ خلاف. وتنتظم الرسالةُ التي صيغت في شكل نصيحة هجومًا عنيفًا على موقف ابن تيمية تُجاه أقرانِهِ من العلماء، وتنتقد على وجه الخصوص ما عُرِفَ به من كِبْر، وعنادٍ، وتعصُّب، وضِيق عَطَن، وافتقار إلى الكياسة والمداراة. ويرى الذهبيُّ أن هذا المزيج من الخصال قد أعمى ابن تيمية عن أخطائه، وحجب عنه أيضًا فضائلَ خصومِهِ، وأفضى به إلى أن يحيط نفسه بطائفة من المتملِّقين. وحسبنا أن نورد بعض المقتطفات حتى نوضِّح طبيعة هذه الوثيقة ونتبيَّن لهجتَها:

«**طُوبَى لمن شغله عيبُهُ عن عيوب الناس، وتبًّا لمن شغلته عيوبُ الناس عن عيبه. إلى كم ترى القَذَاة في عين أخيك، وتنسى الجِذْعَ في عينك. إلى كم تمدح نفسك، وشقاشقك وعباراتك، وتذم العلماء وتتبع عورات الناس**[٢٤]**... يا رجل، بالله عليك، كُفَّ عنا؛ فإنك مِحْجَاجٌ عليمُ اللسانِ، لا تَقَرُّ ولا تنام. إياكم والأُغْلوطات في الدِّين ... وكثرةُ الكلام بغير دليل تُقَسِّي القلبَ [فكيف إذا كان في عبارات اليونسية والفلاسفة، وتلك الكُفْرِيَّات التي تُعْمِي القلوب؟]**[٢٥]**. والله قد صرنا ضُحَكَةً في الوجود، فإلى كم تنبش دقائق الكُفْرِيَّات الفلسفية، لنرد عليها بعقولنا؟! يا رجل، قد بَلَغْتَ سمومَ الفلاسفة ومصنَّفَاتِهم مراتٍ، وبكثرة استعمال السموم يُدمن عليها الجسمُ، وتكمن، والله، في البدن**[٢٦]**. يا خيبةَ مَنِ اتبعك؛ فإنه مُعَرَّضٌ للزندقة والانحلال، ولا سيما إذا كان قليل العلم والدِّين باطوليًّا شهوانيًّا، لكنه ينفعك ويجاهد عنك بيده ولسانه، وفي الباطن عدوٌّ لك بحاله وقلبه، فهل معظمُ أتباعك إلا قعيدٌ مربوطٌ خفيفُ العقل؟ أو عاميٌّ كذَّابٌ بليدُ الذِّهْنِ؟ أو غريبٌ واجمٌ قويُّ المَكْر؟ أو ناشف صالح عديم الفهم؟ فإن لم تصدقني ففتشهم وزِنْهُم بالعدل**»[٢٧].

ويؤكد الذهبي أن هذا كلَّه وأكثر ليس إلا نقدًا بنَّاءً يسوقه صديقٌ محبٌّ، لا يريد به إلا الخير لابن تيمية:

(٢٣) **في بيان زغل العلم**، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، دمشق، (القدسي)، ١٣٤٨هـ/١٩٢٨-١٩٢٩م، ص ٣١- ٣٤.

(٢٤) السابق، ص ٣٢.

(٢٥) السابق، ص ٣٢، ٣٣.

(٢٦) السابق، ص ٣٣.

(٢٧) السابق.

«**ما أذكُرُ أنَّك تذكر الموت، بل تزدري بمَنْ يذكر الموت، فما أظنك تُقْبِلُ على قولي، ولا تُصْغِي إلى وعظي، بل لك همَّةٌ كبيرةٌ في نقض هذه الورقة بمجلدات، وتقطع لي أذنابَ الكلام، ولا تزال تنتصر حتى أقول لك: والبتَّةَ سكتُّ. فإذا كان ذلك هو حالك عندي، وأنا الشفوق المُحِبُّ الوادُّ، فكيف يكون حالك عند أعدائك؟! وأعداؤك، والله، فيهم صلحاء وعقلاء وفضلاء، [كما أن أولياءك فيهم فجرة وكذبة وجهلة وبَطَلَة وعُورٌ وبقر]. وقد رضيتُ منك أن تَسُبَّني علانيةً، وتنتفع بمقالتي سرًّا**»[٢٨].

وهذه كلُّها عباراتٌ شديدةٌ ترسم صورةً لابن تيمية أقلَّ مداراةً من الصورة التي رسمها له ابنُ بطوطة. زد على هذا أن الحُكْمَ الذي قضى به الذهبيُّ أشدُّ وطأةً من الحُكْم الذي أطلقه ابنُ بطوطة؛ ذلك أنه اشتُهر بأنه أحدُ الشافعية الذين ينظرون إلى الأشاعرة بعين الاحتقار، وأنه، تَبَعًا لما قرره [تاجُ الدين] السبكيُّ، «**كان شديدَ الميلِ إلى آراء الحنابلة**»، وهو الميل الذي أفضى به إلى لزوم صحبة ابن تيمية وقبول إرشاده[٢٩].

والحق أن الحُكْمَ الذي قضى به الذهبيُّ على ابن تيمية كان من القسوة بحيث إن اثنين من العلماء، وهما: يوسف كوكان العمري ومحمد عطاء الله حنيف الفوجياني، زعما أنه لا يمكن أن يكون قد قاله، واحتجَّا بأنه لا يتسق مع ما أعرب عنه من تقدير شديد لابن تيمية في غير موضع، ونبَّها على خُلُوِّ المصادر المعاصرة من أي إشارة إلى مثل هذه الرسالة [«**النصيحة الذهبية**»][٣٠]. ولا يمكن الاقتناعُ بأي من هذين الاعتراضين. فعلى الرغم من أن كُتَّاب التراجم المعاصرين لم يُدْرِجُوا هذه الرسالة ضمن مؤلَّفات الذهبي، فإن السخاوي (٨٥٣هـ/١٤٤٩م)، يروي فيما كتبه بعد ذلك بمائة عام أنه طالع هذه الرسالة التي كتبها الذهبي[٣١]. زد على هذا أن السخاوي نقل عن رسالة أخرى، أمسك عن ذكر عنوانها، ساق فيها الذهبيُّ مزيدًا من النقد لابن تيمية؛ حيث قال:

«**[وقد رأيتُ له عقيدةً مجيدةً، ورسالةً كتبها لابن تيمية، هي لدفع نسبته لمزيد تعصبه مفيدة، وقال مرة فيه- مع حلفه بأنه» ما رمقت عينُهُ أوسع منه علمًا، ولا أقوى ذكاءً، مع الزهد في المأكل والملبس والنساء، ومع القيام**

(٢٨) السابق، ص ٣٤.

(٢٩) **طبقات الشافعية الكبرى**، الجزء الخامس، القاهرة: المطبعة الحسينية المصرية، بدون تاريخ، ص ٢١٧. وراجع أيضًا: صلاح الدين المنجد، **سيرة جديدة للذهبي**، في: **سير أعلام النبلاء**، الجزء الأول، القاهرة: معهد المخطوطات، بدون تاريخ، ص ١٩.

(٣٠) العمري، **الإمام ابن تيمية**، لاهور: اسلامى پبلشن مپنى، ١٩٦٠م، ص ٦١٢- ٦١٨؛ محمد أبو زهرة، **حياة شيخ الإسلام ابن تيمية**، ترجمه إلى الأوردية: السيد رئيس أحمد الجعفري [الندوي]، وأضاف إليه، محمد عطاء الله حنيف الفوجياني، لاهور: المكتبة السلفية، ١٩٦١م، ص ٧٧٦- ٧٨١. والحق أنني أدين بالفضل في هذه الإحالات المرجعية إلى أطروحة حسن قاسم مراد (Miḥan)، ص ١١٨، الحاشية رقم ٨٦، وللدكتور ساجدي علوي، و س. س. ك. الحسيني؛ لقيامهما بترجمة هذه الإحالات من الأوردية.

(٣١) **الإعلان بالتوبيخ لمن ذمَّ التاريخ**، بغداد: مكتبة العيني، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م. وراجع أيضًا: ترجمة فرانز روزنتال لهذا الكتاب (Franz Rosenthal) في كتابه:
A History of Muslim Historiography, 2nd ed., Leiden (E. J. Brill), ١٩٦٨, p. ٣٧٦.

في الحق بكل مُمْكِن]-: إنه تعب في وزنه وتفتيشه سنين متطاولة، فما وجد أحَّره بين المصريين والشاميين، ومقتته نفوسُهم بسببه، وازدروا به، وكذَّبوه، بل كفَّروه، إلا الكِبْرُ والعُجْبُ والدَّعَاوى، وفرطُ الغرام في رياسة المشيخة، والازدراءُ بالكبار، ومحبةُ الظهور، [بحيث قام عليه ناسٌ ليسوا بأورع منه ولا أعلم ولا أزهد، بل يتجاوزون عن ذنوب أصحابهم وآثام أصدقائهم، ولكن ما سلَّطهم اللهُ عليه بتقواهم وجلالتهم، بل بذنوبه، وما دفع الله عنه وعن أتباعه أكثر، وما جرى عليهم إلا بعض ما يستحقون]"[٣٢].

ومصدرُ هذه الفقرة هو «**بيان زغل العِلْم**»[٣٣] للذهبي، وهي الفقرة التي عدَّها الفوجياني أيضًا منحولةً على الذهبي؛ لنفس الأسباب المذكورة آنفًا[٣٤]. بيد أن الحقيقة هي أن الآراء التي اشتملت عليها هاتان الرسالتان تعبِّر بصدق عن رأي الذهبي في ابن تيمية، وهو الرأيُ الذي جرى الإعرابُ عنه في مصادر أخرى لا نزاع في موثوقيتها، [أي: في صحة نسبتها إلى أصحابها]. وعلى العموم، فإن خير سبيل، إن لم يكن السبيل الوحيد، لوصف مشاعر الذهبي تُجاه ابن تيمية هو القولُ بأنها كانت مشاعرَ متضاربةً؛ فثناؤه على الشيخ كان أمرًا مألوفًا في مقام المدح والتقريظ، ولكنه اقترن بالنقد دائمًا. وكانت ملاحظاتُ الذهبي- خلافًا لملاحظات ابن بطوطة- تستند إلى أساس متين يقوم على المعرفة المباشرة بالشيخ، وهي المعرفةُ التي نشأت عن اهتماماتهما المشتركة، وما ترتَّب على ذلك من اتصال بينهما في دمشق؛ فكلاهما كان من علماء الحديث، وكلاهما كان يُزْرِي بالفلسفة ويُسِيءُ الظن بعلم الكلام، وكلاهما كان يحاول صياغة الإسلام صياغةً مدرسيةً (in scholastic terms). والحق أن جُلَّ كتابات الذهبي تتصل، على نحو من الأنحاء، بعِلْم الحديث، أو علم الرجال- وهو العلم الذي يتغيَّا التحقق من موثوقية رواة الحديث- أو علم التاريخ الذي كانت جذورُهُ ومنهجياتُهُ نفسُهَا تقع في صميم حقل الحديث. وأما مصنَّفاتُ ابن تيمية فكانت أدخل في باب التنظير من حيث مضمونها ومنهجها، وإن تجلَّتْ عنايتُهُ بالحديث في هذا العدد الوافر من الكتب التي ألَّفها في الفقه وأصوله، وفي اعتماده الشديد على الحديث بوصفه مصدرًا لتوثيق آرائه التي أعرب عنها في مؤلفاته الأخرى. وقد تقلَّد كلا الرجلين بعض وظائف التدريس؛ حيث شغلا مشيخة الحديث في عدد من المؤسسات [العلمية] بدمشق؛ فتولَّى ابنُ تيمية مشيخة الحديث بدار الحديث السكرية، والمدرسة الحنبلية[٣٥]، وتولَّى الذهبيُّ مشيخة

(٣٢) السابق. [يمكن مراجعة هذا النص في: فرانز روزنتال، **علم التاريخ عند المسلمين**، ترجمة: صالح أحمد العلي، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م، ص ٥٠٤. وقد ذكر محمد زاهد الكوثري، ناشر كتاب **«بيان زغل العلم»**، أن **«النصيحة الذهبية»** هي نفس الرسالة التي أشار إليها السخاوي في «الإعلان بالتوبيخ». **(المترجم)**].

(٣٣) راجع ما تقدم في هذه المقالة.

(٣٤) **حياة شيخ الإسلام ابن تيمية**، ص ٧٧٦- ٧٨١.

(35) Laoust, "Ibn Taymiyya", Encyclopaedia of Islam, 2nd ed., III, 951-53, Murād, "Miḥan", pp. 74-76, 107.

الحديث في المدرسة النفيسية والمدرسة الفاضلية، وكذلك في دار الحديث السكرية خلفًا لابن تيمية[٣٦]. وكان الذهبيُّ أخيرًا منتسبًا إلى طائفة من الشافعية في دمشق ذكر السبكيُّ أنهم تأثروا بابن تيمية تأثرًا أضرَّ بهم؛ حيث قال: «**واعلم أن هذه الرُّفْقة، أعني: المزي والذهبي والبرزالي وكثيرًا من أتباعهم، أضرَّ بهم أبو العباس بن تيمية إضرارًا بيِّنًا، وحمَّلهم من عظائم الأمور أمرًا ليس هيِّنًا، وجرَّهم إلى ما كان التباعدُ عنه أولى بهم، [وأوقفهم في دكادك من نارٍ، المرجو من الله أن يتجاوزها لهم ولأصحابهم]**»[٣٧]. بيد أنه على الرغم مما كان بينهما من صحبةٍ واهتماماتٍ مشتركة واتفاق على بعض المسائل، فمن الواضح أن إعجاب الذهبي بابن تيمية كان ينالُ منه دائمًا كثيرٌ من الهواجس. ويتجلَّى هذا التضاربُ، الذي كان الذهبي على وعي به، في أوضح صوره في هذه العبارة اللافتة للنظر التي تعكس هذا الموقف الذي حفظه ابنُ حجر على أكمل وجه؛ إذ يقول [نقلاً عن الذهبي]:

«**ومَنْ خالطه وعرفه فقد ينسبني إلى التقصير فيه، ومَنْ نابذه وخالفه فقد ينسبني إلى التغالي فيه، وقد أُوذِيتُ من الفريقين من أصحابه وأضداده. وكان أبيضَ، أسودَ الرأس واللحية، قليلَ الشَّيب، شعرُهُ إلى شحمة أذنيه، وكأن عينيه لسانان ناطقان، رَبْعَةً من الرجال، بعيدَ ما بين المنكبين، جَهْوَرِيَّ الصوت فصيحًا، سريعَ القراءة، تعتريه حدَّةٌ، لكنه يقهرها بالحلم. ولم أَرَ مثله في ابتهاله واستغاثته، وكثرة توجهه. وأنا لا أعتقد فيه عصمةً، بل أنا مخالفٌ له في مسائل أصلية وفرعية، فإنه كان مع سعة علمه وفرط شجاعته وسيلان ذهنه وتعظيمه لحرمات الدين، بشرًا من البشر**»[٣٨].

وثمة تعليقاتٌ أخرى متناثرةٌ في مختلف المصادر يمكن عزوُها إلى الذهبي، وهي تكشف عن مزيد من مثالب ابن تيمية؛ إذ يروي الصفديُّ (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م) عن الذهبي أن ابن تيمية كان مزهوًّا بنفسه جريئًا قليلَ المداراة[٣٩]. وكذلك ينقل ابنُ رجب (ت ٧٩٥هـ/١٣٩٣م)، كاتبُ التراجم الحنبلي، عن الذهبي، مُحَرِّرًا الصفة الأخيرة مُضِيفًا إليها أن فيه [أي: ابن تيمية] «عدمَ تؤدة»، وأن له حِدَّةً [تعتريه في البحث]، حتى كأنه «ليثٌ حَرِبٌ»[٤٠]. ويروي ابنُ رجب أيضًا عن المصدر نفسه [أي: الذهبي] أن ابن تيمية كان متقلِّب المزاج، حتى إنه «قد يعظِّم جليسَهُ مرةً، ويُهِينُهُ في المحاورة مراتٍ»[٤١].

(٣٦) عبد القادر النُّعَيمي، **الدارس في تاريخ المدارس**، الجزء الأول، دمشق: المجمع العلمي العربي، ١٩٨٤م، ص ٧٩. وانظر أيضًا:

Moh. Ben Cheneb, "al-Dhahabī", EI2, II, 214.

(٣٧) **طبقات الشافعية**، ٢٥٤/٦.

(٣٨) **الدرر الكامنة**، ١٦١/١. وراجع أيضًا: ترجمة حسن قاسم مراد لهذا النص، في: "Miḥan", p. 34.

(٣٩) **الوافي بالوفيات**، الجزء السادس، تحقيق: إحسان عباس، فيسبادن (Franz Steiner Verlag)، ١٩٦٩م، ص ١٨.

(٤٠) **الذيل على طبقات الحنابلة**، تحقيق: محمد حامد الفقي، الجزء الثاني، القاهرة: مكتبة السنة المحمدية، ١٩٥٣م، ص ٣٩٥.

(٤١) السابق.

وتتسق هذه الخصالُ كلُّها مع تقدير أعم وأكثر تعاطفًا ساقه الذهبيُّ لابن تيمية، وهو تقديرٌ يتيح لنا، فيما يبدو لي، مفتاحًا لفهم ما نعرفه عن الشيخ: حيث كان ابنُ تيمية، تَبَعًا للذهبي، منقطعًا للعِلْم تمام الانقطاع، «فارغًا عن شهوات المأكل والملبس والجِمَاع، لا لذةَ لَهُ في غير نشر العلم وتدوينه، والعمل بمقتضاه»[٤٢]. ومن المهم في هذا الصدد أن نذكر أنه لم يتزوج قطُّ وَلَا تسرَّى، ولا ريب أنه أمرٌ شديدُ الغرابة بالنسبة لشخص مسلم[٤٣]. وكان متى اكتسب شيئًا من المال أنفقه؛ ولهذا فقد تعيَّن على إخوته أن يقوموا بشئونه[٤٤].

وكان الذهبيُّ هو مصدرَ هذه الانطباعاتِ كلها، فهل يسعنا التأكدُ من أن رأيه في ابن تيمية لم تنحرف به العواطفُ أو المشاعرُ عن جادة الإنصاف؟ الحق أنه من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، أن نقرِّر ذلك في ظل ما نفتقر إليه من معلومات عن شخصية الذهبي، وإن كانت لهجتُهُ في الحديث توحي بأنه كان موضوعيًّا، بعيدًا عن الحسد، وأنه ضاق ذرعًا بابن تيمية، وإن لم يعدل به هذا الضيقُ إلى الحقد عليه. وبالإضافة إلى ذلك، هناك بعضُ الأخبار التي يمكن الوقوفُ عليها في طائفة من المصادر الأخرى المستقلة، وهي تؤيِّد الحُكْمَ الذي انتهى إليه الذهبيُّ.

وتتألَّفُ هذه الأخبارُ من الحكايات الواردة في كتب التراجم والمرويات التي اشتملت عليها كتبُ الحوليات وصوَّرت لنا الأنشطة العامة لابن تيمية. وعلى الرغم من أن كُتَّاب التراجم المسلمين كانوا قلَّما يذكرون أخبارًا تتعلَّق بطفولة مَنْ يترجمون له إلا إذا كانت تُبْرِزُ بعض الأمارات الدالة على منقبة من المناقب أو منجزًا من المنجزات غير المألوفة في هذه السن الباكرة، فقد حفظ لنا الصفديُّ إحدى الحكايات عن طفولة ابن تيمية، حين كان يدرس مع أبناء أسرة أخرى من الأُسَر الحنبلية البارزة في دمشق، وتُظْهِرُ هذه الحكايةُ -عن غير قصدٍ- أنَّ المزاجَ الحادَّ الذي جُبِلَ عليه ابنُ تيمية، وهذا الصَّلَفَ الذي لاحظه الذهبيُّ كان أمرًا جَبِلِيًّا عُرِفَ به منذ نعومة أظفاره:

«[وحَكَى لي عنه الشيخُ ابنُ قيِّم الجوزية، قال:] كان صغيرًا عند بني المُنَجَّا، فبحث معهم، فادعوا شيئًا أنكره، فأحضروا النقل، فلما وقف عليه ألقى المجلدَ من يده غيظًا، فقالوا له: أنت جريءٌ؛ ترمي المجلد من يدك وهو كتابُ عِلْمٍ! فقال سريعًا: أيُّما خيرٌ أنا أو موسى؟ فقالوا: موسى، فقال: أيُّما خيرٌ هذا الكتابُ أو ألواحُ الجوهر التي كان فيها العشر كلمات؟ قالوا: الألواح، فقال: إن موسى لما غضب ألقى الألواح

(٤٢) السابق، ص ٣٩٠. ويطالعنا هذا الرأيُ نفسُهُ في كتاب **«الوافي بالوفيات»** للصفدي، ١٦/٧، فيما عدا لفظة **«الجماع»**، حيث يستبدل بها الصفديُّ قولَهُ: **«الراحة الدنيوية»**.

(٤٣) ابن رجب، **الذيل على طبقات الحنابلة**، ٣٩٥/٢؛ وانظر أيضًا: ابن الوردي، **تاريخه**، الجزء الثاني، النجف: المطبعة الحيدرية، ١٩٦٩م، ص ٤١٢.

(٤٤) السابق. [ونص عبارة ابن رجب، نقلًا عن الذهبي: «وأخوه يقوم بمصالحه ... وما رأيتُ في العالم أكرم منه، ولا أفرغ منه عن الدينار والدرهم، لا يذكره، ولا يدور في ذهنه ... « **(المترجم)**].

من يده»[٤٥].

وثمة حكايةٌ أخرى يُورِدُهَا الصفديُّ تؤكد ما لاحظه الذهبيُّ من أن ابن تيمية كان لا يكترث بشئون الدنيا. وتروي هذه الحكايةُ أنه أكل قرعًا، عافته أمُّه لشدة مرارته، دون أن يبدى امتعاضًا[٤٦]. ولعل أبلغ ما يَدُلُّنا على استغراقه الكامل في أمر الدِّين مجاهرتُهُ بأنه لا يبالي بصنوف العقوبة المختلفة التي يمكن أن يتعرَّض لها؛ حيث قال:

«ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحْتُ فهي معي، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة»[٤٧].

وتتيح لنا هذه المروياتُ التي تصوِّر لنا الأنشطةَ العامةَ لابن تيمية أدلةً وافرةً تُثْبِتُ ما أبداه الذهبيُّ من ملاحظات أخرى، ولا سيما تلك الملاحظات المتعلِّقة بما عُرِفَ به الشيخُ من زهو وخُيَلاء، واندفاع، ومعاندة، وتعصب، وعزوف عن المداراة. ومن اليسير الوقوفُ على بعض الأمثلة التي تصوِّر لنا مثلَ هذه الخصال في المصادر الثانوية، وحَسْبُنَا أن نستحضر في هذا المقام بعضَ الأحداث التي مرَّ بها: كجرأته المتهورة في مواجهة حُكَّام المغول[٤٨]، وجسارته في دعوة السلطان المملوكي إلى جهادهم[٤٩]، وتخريبه لبعض الآثار المقدسة التي نُسِبَتْ إلى النبي [ﷺ][٥٠]، وشجاعته في التنديد بما كان يأتيه دراويشُ الرفاعية من ألوان الشعبذة[٥١]، وسعيه في إطلاق سراح صاحبه - المِزِّي- من السجن[٥٢]، ورفضه غير مرة الإذعان للسلطة المملوكية[٥٣]، ووشايته بالأقباط على نحو يفتقر إلى الكياسة والمداراة، في حين رأى غيرُهُ من العلماء أن الحكمة في هذا الموطن تُوجِبُ اللياذ بالصمت[٥٤].

وكان ابنُ تيمية صادقًا في انقطاعه للمبادئ الدينية، لا يركن إلى حياة البطالة والفراغ، حتى إن ابن عبد الهادي يروي عنه أنه حوَّل السجن الذي اعتُقِلَ به في مصر إلى معهد للدراسة الدينية والعبادة، وحوَّل المحبوسين من الاشتغال بالشطرنج والنرد إلى ملازمة الصلاة[٥٥]. وحتى حين كان الشيخُ يسير في شوارع القاهرة في طريقه إلى ما

(٤٥) **الوافي بالوفيات**، ٧/١٧.

(٤٦) السابق، ص ١٨.

(٤٧) ابن رجب، **الذيل على طبقات الحنابلة**، ٢/٤٠٢.

(48) Laoust, "La Biographie d'Ibn Taimīya d'après Ibn Kaṯīr", Bulletin d'Études Orientales, IX (1942-45), 123-24.

(49) Ibid., p. 127.

(50) Ibid., p. 133; Murād, "Miḥan", p. 80.

(51) Laoust, "Biographie", pp. 135-36, and Essai, pp. 126-27; Murād, "Miḥan", pp. 80-82.

(52) Laoust, "Biographie", p. 137; Murād, "Miḥan", p. 89.

(٥٣) Laoust, "Biographie", pp ١٣٩-١٤١, ١٥٣, and Essai, pp ١٣٣-١٣٤, ١٤٤-١٤٥; Murād, "Miḥan", pp ٩٢, ٩٤-٩٥, ١٠٦-١٠٧.

(54) Laoust, Essai, pp. 141-42; Murād, "Miḥan", pp. 101-02.

(٥٥) ابن عبد الهادي، **العقود الدرية**، ص ٢٨٨.
[ونصُّ عبارة ابن عبد الهادي: «... وحُبِسَ بسجن الحاكم بحارة الديلم ... ولما دخل الحبس وجد المحابيس مشتغلين بأنواع من اللعب، يلتهون بها عما هم فيه، كالشطرنج والنرد، ونحو ذلك من تضييع الصلوات. فأنكر الشيخُ عليهم أشدَّ الإنكار، وأمرهم بملازمة الصلاة، والتوجه إلى الله بالأعمال الصالحة، والتسبيح والاستغفار، والدعاء، وعلَّمهم من السُّنة ما يحتاجون إليه، ورغَّبهم في أعمال الخير، وحضَّهم على ذلك، حتى صار الحبس بما فيه من الاشتغال بالعلم والدين خيرًا من الزوايا والربط، والخوانق والمدارس، وصار خلقٌ من المحابيس إذا أُطلِقوا يختارون الإقامة عنده، وكثر المترددون إليه، حتى كان السجن يمتلئ منهم». **(المترجم)]**.

كان يعده أصحابُهُ موتًا محققًا، لم يستطع أن يمنع نفسه من التوقف قليلاً للإطاحة برقعة الشطرنج، حين رأى قومًا يلعبون به على مسطبة بعض حوانيت الحدَّادين[٥٦].

وأحسب أن مَنْ سيتوفَّر على قراءة هذه المصادر سيتبيَّن له أن رأي الذهبي في ابن تيمية كان له ما يُبَرِّره. وعلى الرغم من أنه كان شيخًا عظيمًا وشخصًا ألمعيًّا تتمثَّل فضائلُهُ الأساسيةُ في الشجاعة والتقوى والإيثار وغزارة العِلْم، فقد كانت له أيضًا نقائصُهُ التي نبَّه عليها الذهبيُّ، وتتمثَّل بالدرجة الأولى في حِدَّة مزاجه (وإن كان من المؤكد أنه سيطر عليها)، وقلة صبره على ما جُبل عليه البشرُ من نقص، وتصلبه الشديد؛ فأمسى بفضل هذه الخصال مجتمعةً، سواءٌ أكانت حسنةً أم قبيحةً، شخصًا استثنائيًّا مغايرًا لأقرانه من العلماء الذين كانوا أرقَّ منه حاشيةً، ومنهم الذهبيُّ نفسُهُ.

وتظل الأسئلةُ التي صدَّرنا بها هذه الدراسةَ قائمةً. ويمكن طرحُ السؤال الأول منها بصيغة مغايرة على النحو الآتي: هل يُثْبتُ رأيُ الذهبيِّ في ابن تيمية ما قرره ابنُ بطوطةَ بشأنه؟ الحق أنه إذا كان مقصودُ ابن بطوطة أن ابن تيمية مجنونٌ، نوع جنون، أي: مسَّه الجنُّ، فينبغي علينا اطراحُ قوله بالكلية؛ إذ تخلو المصادرُ الأخرى تمامًا من الأدلة التي تعضد هذا القول، ومن هذه المصادر ما كتبه الذهبيُّ نفسُهُ. بيد أنه من الواضح أن ابن بطوطة لم يقصد إلى شيءٍ من ذلك، وعلينا أن نتذكر في هذا المقام أن عبارته الفجة «**إلا أن في عقله شيئًا**» قد خفَّفَ من غُلَوائها عباراتٌ أخرى بدت أكثر إسماحًا في وصف ابن تيمية؛ حيث وصفه بأنه «**كبيرُ الشأن، يتكلَّم في الفنون .... وكان أهل دمشق يُعَظِّمونه أشدَّ التعظيم**»[٥٧].

وبعبارة أخرى يمكن القول: إن حُكْم ابن بطوطة لم يكن ينطوي على إدانةٍ محضةٍ لابن تيمية، وإنما شابه ثناءٌ عليه، حتى لو كان في مستطاعنا أن نستنتج أنه كان مسوقًا بشعور الحسد. وأعتقد أن ابن بطوطة، بالنظر إلى السياق الذي وردت فيه هذه المقولةُ المُهِينةُ، لم يكن يقصد إلا أن ابن تيمية كان يفتقر إلى ما يكفي من الحلم وضبط النفس حتى يصدر في سلوكه على نحو يعزز مصلحته الشخصية، بحيث يَدَع ما دأب عليه بين الفينة والفينة من إثارة الفتن والقلاقل. فإذا كان هذا التفسيرُ صحيحًا[٥٨]، فمن الصعب أن ننكر صحة المنحى الذي اتخذه ابنُ بطوطة في وصف [شخصية] ابن تيمية؛ نظرًا لأن هذا الوصف قد أكَّده الذهبيُّ في غير موضع. ولئن كان وصفًا قاسيًا، بل ربما بلغ حدَّ التطاول والوقاحة، فإنه لا يخلو من بعض الحق.

وبعدُ، فكيف أثَّرت شخصيةُ ابن تيمية على

(٥٦) السابق، ٢٦٩.

[ونص عبارة ابن عبد الهادي: «... فلما خفَّ الناسُ خرج يطلب الجامع العتيق، فمرَّ في طريقه على قوم يلعبون بالشطرنج، على مسطبة بعض حوانيت الحدَّادين، فتقض الرقعة وقلبها، فبُهِتَ الذي يلعب بها والناسُ من فعله ذلك. ثم مشى قاصدًا للجامع والناسُ يقولون: هنا يقتلونه، الساعة يقتلونه، فلما وصل إلى الجامع، قيل: الساعة يُغلق الجامع عليه وعلى أصحابه ويقتلون». **(المترجم)**].

(57) Defrémery and Sanguinetti, Voyages, I, 215.

(٥٨) يمكن القولُ بعبارة أكثر تحديدًا: إن ابن بطوطة ربما كان يعني أنه على الرغم من رسوخ قدم ابن تيمية في العلوم كلها، فإن الأفكار التي عبَّر عنها بدت غير منطقية.

سيرته المتقلِّبة من حيث كونُهُ مُضلِعًا؟ كان ذلك بطريقتين على الأقل؛ إحداهما: ما ألمح إليه الذهبيُّ، كما رأينا في «**النصيحة الذهبية**» و«**بيان زغل العلم**»، من أن ابن تيمية هو الذي جرَّ على نفسه كلَّ هذه المشكلات، أي أنه لو كان قد ركن إلى شيء يسير من المداراة وضبط النفس في علاقاته مع زملائه من العلماء، ومع سلطة الدولة المملوكية، لجنَّب نفسَهُ وغيرَهُ كثيرًا من المحن التي تسبب فيها، ليس هذا فحسب، بل إنه كان سيُوفَّق إلى نشر آرائه بقدر أكبر من النجاح. وقد تأكَّد هذا الرأيُ في موضع آخر؛ [حيث قال ابنُ حجر نقلاً عن الذهبي]: «**وكانت تعتريه حِدَّةٌ في البحث وغضبٌ وشظف للخصم تزرع له عداوةً في النفوس، وإلا لو لاطف خصومَهُ، لكان كلمةَ إجماعٍ، فإن كبارهم خاضعون لعلومه، معترفون بشغوفه، مُقِرُّون بندور خطأه**»[٥٩].

ولا يعني ذلك أن ابن تيمية كان لا ينفك عن معاداة الآخرين واتخاذ مواقف متشددة تُجاههم بصورة دائمة؛ فالحق أنه، تَبَعًا لما يرويه ابنُ عبد الهادي، رفض مطاوعة الملك الناصر في خُطَّته الرامية إلى إعدام خصومهما المشتركين، بل إنه نصحه بالصفح عنهم، وهذا دليلٌ كاف على إثبات تسامحه في بعض الأحيان[٦٠]. ومع ذلك، يبدو جليًّا أن امتناعه عن مداراة خصومه أو حتى رعاية أصدقائه أسهم بصورة جوهرية في المصاعب التي تعرَّض لها من قِبَل المؤسسة السياسية والدينية المملوكية.

ومن جهة أخرى، يبدو من المحتمل أن الخصال نفسَهَا التي ولَّدت في نفوس أعدائه شعور الكراهية نحوه وأثارت استنكار الذهبي هي نفسها التي أكسبته إعجاب أنصاره. وسوف نغض الطرف في هذا المقام عن مضمون معتقداته مرة أخرى، مفترضين أنها كانت، ولا بُدَّ، أقلَّ أهميةً في نظر مُحبِّيه من «العلماء والصُّلَحاء، ومن الجند والأمراء، ومن التجار والكبراء، وسائر العامة؛ لأنه منتصب لنفعهم ليلاً ونهارًا بلسانه وقلمه»[٦١]، وإن كانت بيقين عاملاً مهمًّا في نظر أقرانه من العلماء. فلا ريب أن مثل هؤلاء المحبِّين قد استولى عليهم الإعجابُ بشجاعته وجرأته، وهي الخصال التي كانت، فيما رُوي لنا، مضرب المثل[٦٢].

والواقع أن شهرة ابن تيمية بدأت، فيما نُقِل إلينا، حين أظهر هذه الخصال في لقاء قيل: إنه جمع بينه وبين السلطان غازان، إيلخان الدولة المغولية[٦٣]. زد على هذا أنه من الصعب أن نعتقد أن خصاله التي تجسَّدت في شدة ثباته على ما كان يؤمن به من مبادئ، وصراحته وحماسته المتقدة، ومعارضته

(٥٩) ابن حجر (نقلًا عن الذهبي)، **الدرر الكامنة**، ١٦١/١.

(٦٠) ابن عبد الهادي، **العقود الدرية**، ص ٢٨٢، ٢٨٣، وانظر أيضًا:
Laoust, Essai, pp. 140 -141.

(٦١) ابن عبد الهادي، **العقود الدرية**، ص: ١١٨.

(٦٢) ابن رجب، **الذيل على طبقات الحنابلة**، ٣٩٥/٢.

(٦٣) ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ١٦٤/١.

للسلطة، واستخفافه بخصومه، وإن أثارت قدرًا كبيرًا من استياء الذهبي، لم تكن مثارَ إعجاب كثير من أنصاره الذين جنحوا إلى تأييده استنادًا إلى معتقداته. فلا بُدَّ أن الإعجاب بهذه الخصال كان عاملاً مهمًّا يفسِّر الدعم الجماهيري الذي أومأ إليه ابنُ بطوطة، وما اشتُهِرَ به من تأثير لدى مسئولي دولة المماليك على اختلافهم[٦٤]. وبعبارة أخرى، أعتقد أن ابن تيمية لو كان قد اتبع نصيحة الذهبي واهتدى في أخلاقه وتصرفاته بالنمط السائد بين أقرانه من العلماء، أي أنه لو كان قد تعاون مع زملائه وآزر السلطة المملوكية، وخفف نبرة دعوته وحَدَّ من غلواء سلوكه، من أجل تحاشي «لفت الأنظار إليه»، لتقلص تأثيرُهُ على المجتمع المملوكي بدرجة كبيرة.

وفي الختام، هل تشتمل المصادرُ على ما يكفي من المواد والأخبار التي تكفل النهوض بتحليل نفسي معقول [لشخصية ابن تيمية]؟ مبلغُ علمي أن الإجابة يجب أن تكون بالنفي، على الرغم من وفرة الأدلة والقرائن التي تثير فضول المؤرِّخ المهتم بالمنازع النفسية، فمن ذلك مثلاً: اضطرابُ طفولة ابن تيمية بأثر الفرار من المغول بالضرورة، وحِدَّةُ مزاجِهِ التي يرجع تاريخها إلى طفولته، واستغراقُهُ الذاتي وقلةُ مداراته، وتحديه للسُّلطة، وإيثاره للعزوبة، وبِرُّه بأمه، دع عنك نزعتَهُ المحافظةَ فيما كان يدين به من آراء. بيد أنه يلوح لي أن هذا المسار في الدرس سيتكئ على الحدس والتخمين بدرجة كبيرة؛ نظرًا لقلة ما تحويه المصادرُ من معلومات تدعم هذا التحليل النفسي. وثمة مقاربةٌ أخرى أكثر جدوى تنعطف بنا إلى كتابات ابن تيمية؛ إذ ربما يسوغ لنا الآن أن نُفَتِّشَ في هذه الكتابات عن آثار تلك الخصال التي وقف عليها الذهبيُّ في شخصية ابن تيمية؛بحسبان ذلك وسيلةً لاختبار أحكام الذهبي من جهة، وفهم الطابع الذي وسم فكرَ ابن تيمية من جهة أخرى.

ومهما يكن من أمر، فإننا مدينون بالفضل للذهبي في المقام الأول؛ لأنه جعل ابنَ تيمية واحدًا من المفكرين المسلمين القلائل خلال العصور الوسطى الذين يتحدثون إلينا الآن لا بوصفهم أصواتًا مجردةً غير متجسِّدة، ولكن بوصفهم أشخاصًا واقعيين أشد الواقعية موسومين بالطابع البشري في أجلى صوره. فإذا أردنا أن نفهم طبيعة «**الظاهرة التيمية**»، وأعني بها إدراك الأثر الكامل الذي تركته أنشطةُ ابن تيمية ومؤلفاتُهُ على تطور الإسلام، فلا ريب أنه يجب علينا أن نبدأ بطبيعة الرجل نفسه.

دونالد ب. لتل
مونتريال

(٦٤) فمن ذلك مثلًا: تأثيره على والي الشام الأمير آقوش الأفرم (٧١٦هـ/١٣١٦م)، والأمير سلار، نائب السلطنة في مصر (٧١٠هـ/١٣١٠م)، وشيخ العربان في الشام مهنى بن عيسى (٧٣٥هـ/١٣٣٥م)، وتبعًا لهنري لاووست، كان لابن تيمية تأثيرٌ على الملك الناصر نفسه. انظر:
Laoust, "Biographie", pp. 140-42, 146.